قراءة في الفكر النقدي لدى عبد المالك مرتاض –نحو مساءلة التراث النقدي و تعددية المنهج–

A reading in the critical thought of Abdul Malik Mortada
- Towards accountability of the critical heritage and the plurality of approaches -

بوضروة زهرة *

جامعة حسيبة بن بوعلي– شلف– الجزائرboudherouazahra22@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2021/10/08 تاريخ القبول: 2021/10/23 تاريخ النشر: 2021/10/30

ملخص: يؤلف هذا المقال صفحة من صفحات النّقد العربي الحديث و المعاصر من خلال قراءة للفكر النّقدي لدى عبد المالك مرتاض، تتقابل فيها نظريات و مناهج نقدية مختلفة تسود ساحة النّقد الأدبي و لأنّ النقد هو الموّكل بمحاكمة العمل الأدبي و بمهام ثقافية أخرى منوطة به تتصل بحاضر الأدب و ماضيه و مستقبله فإنّه يشكّل جانبا شديد الخطورة في حياتنا الأدبية و الثقافية المعاصرة، و تشهد سوق الآداب العالمية كما يسميها جورج صليبا في معجمه الفلسفي نظريات نقدية متداولة منها الغثّ و منها السّمين، و قد وجدت لنفسها سبيلا إلى النّقد العربي و قامت بصددها ضجّة واسعة دانت لها الرّقاب و تبناها العديد من النقاد و نفى أن يكون ما قبلها يدعى نقدا، ووقف البعض منهم موقف المشكّك و المرتاب في إمكانية جدواها عربيا لأسباب عدّة منها اختلاف المرجعيات الثقافية العربية و الغربية، و شهدت السّاحة النقدية العربية غليانا و انقلابا على المباديء النّقدية و الأدبية، ومن أجل ذلك جاء مقالنا هذا بهدف إبراز الموقف النّقدي الذي اتّخذه عبد المالك مرتاض اتّجاه النّقد و التّحولات التّي شهدتها المرحلة الأخيرة من التوجهات الأدبية و النقدية؟ آملين من خلاله أن نخلص في نهاية البحث إلى النتائج التالية:

- أبرز المحطات التي توقف عندها عبد المالك مرتاض و هو يتدرج في انتقاله مابين المناهج السياقية و النصية ومن أحادية المنهج إلى تعدديته.
- نظرته الفكرية التوفيقية و الإزدواجية للنظريات السابقة و اللاحقة و ما أضافه للساحة النقدية المحلية و العربية.

و تفصيل ذلك يرد في محتوى البحث.

* المؤلف المرسل

الكلمات المفتاحية: عبد المالك مرتاض-الفكر النقدي الحديث و المعاصر- التراث النقدي- الرؤية- الأساس والمنهج.

Abstract: This article composes a page from the pages of modern and contemporary Arab criticism through a reading of the critical thought of Abd al-Malik Mortadah, in which different theories and critical approaches prevail in the arena of literary criticism and because he is in charge of the trial of literary work and other cultural tasks entrusted to him related to the present of literature And his past and his future, it constitutes a very dangerous aspect of our contemporary literary and cultural life, and the global literary market, as George Saliba calls it in his philosophical dictionary, witnesses critical theories in circulation, including the shabby and the fat ones, And it found a way for itself to Arab criticism, and it made a lot of uproar against it that was condemned by the censorship and adopted by many critics and denied that what preceded it was called criticism, and some of them took the position of skeptic and suspicious of its viability in the Arab world for several reasons, including the difference of Arab and Western cultural references. And the Arab cash arena witnessed an upheaval and a revolution against critical and literary principles, so what is the critical position taken by Abdel-Malik Mortad towards criticism and the changes that took place in the last stage of literary and critical trends? And for that, our article came with the aim of highlighting the critical position taken by Abd al-Malik Murtad towards the direction of criticism and the transformations that the last stage of literary and critical trends witnessed? We hope through it that we will conclude at the end of the research the following results:
- The most prominent stations that Abdul Malik Mortad stopped at, as he progressed in his transition between contextual and textual curricula, and from mono-curriculum to pluralism.
- His intellectual compromise and duplication of the previous and subsequent theories, and what he added to the local and Arab criticism arena.
And a detail of that is contained in the content of the research.

Key words: Abdul Malik Mortad - modern and contemporary critical thought - critical heritage - vision - basis and method..

مقدمة: في محاولتنا للإجابة عن أسئلة البحث المذكورة آنفا و أخرى نعثر عليها بين فقراته اتكأنا على مرجعين جعلناهما مرتكز البحث في النقد السردي لدى عبد المالك مرتاض **نهدف من وراء ذلك إلى** استنباط المزيد من الأسس الفكرية و النقدية المشكلة لمنظومة القيّم الفنيّة و الأدبية التّي تبناه النّاقد

معتمدين منهج استقصائي تحليلي وصفي في كل مراحل النقد التعاقبية لدى عبد المالك مرتاض متوخين الفرضيات الآتية: أن عبد المالك و هو يقلب فكره و يجيل بصره بين صفحات تاريخ النقد الأدبي الجزائري و العربي التي لم تشفِ غليله و لم تجِب عن كافة انشغالاته و طموحاته و أطروحاته اضطر إلى إيجاد بديل منهجي تركيبي هجين في دراسة الأثر الأدبي الملم بمختلف جوانب الدرس الأدبي و الإنتقال بتصوراته من المنهج إلى اللامنهج .

أوّلهما: مُؤلف يوسف وغليسي" الخطاب النّقدي عند عبد المالك مرتاض- بحث في المنهج و إشكالاته" من إصدارات رابطة إبداع الثقافية عام 2002م، يضم 140صفحة موزعة على مدخل و فصلين، سنعرضهما فيما يلي:

أمّا ثانيهما: فهو كتاب الدكتور أحمد بوجمعة بناني المعنون بـ: المصطلح النقدي المعاصر عند عبد المالك مرتاض- مقاربة منهجية- الصادر عن دار الأيتام للنشر و التوزيع، بالأردن الطبعة الأولى 2015م، المؤلف بدوره من أربعة فصول سنجعلها محور درسنا هذا.

قدّم ليوسف وغليسي كتابه الطاهر يحياوي تحدّث في مستهله عن عبد المالك مرتاض القلم المطواع و عدّد خصاله الأدبية و النقدية الفذّة إذ يذكر فيها(ورقة التقديم)" قدرته الفائقة على الفهم و التحليل و الصياغة الراقيّة، إذ قلّما انعتق باحث بوهج أسلوبه و ارتقاء نسجه، و هو يعارك النّص و يعارك النّص و يعارك أقلام الكاتبين من حوله في عمق النّص...فلقد كانت خاصية الأديب ماثلة في كلّ نصّه النقدي، و شتّان بين ناقد أديب و ناقد غير أديب"[1]. و مضى في وصفه بما يليق بهذه القامتين العلميتين الباسقتين إلى جانب يوسف وغليسي مؤلف الكتاب(محور الدّرس)، ثم كتب يوسف وغليسي مقدمة سعى فيها إلى الإحاطة بشجون الإشكالية المنهجية في تجربة نقدية ضخمة لأحد أقطاب الأدب العربي في الجزائر بيّن له البحث أن تلك المحاولات النضيضة لم تفِ تجربته حقها في تعاطي نقد النقد و تبيان علاماتها الخصوصية التي تميّز صاحبها عن عشرات وجوه النّقد الجديد في وطننا العربي.

فمؤلفاته النقدية تتجاوز العشرين فضلاً عن عشرات الدراسات النقدية المطروحة في بطون الدوريات العربية، بل لأنه من أكثرهم مؤالفة بين التّراث و الحداثة و مقاربة بين الرؤى المتباعدة و معايشة بين الثقافات المختلفة، و ليس ذلك بعزيز على كاتب مبتدأ حياته قرية مسردة التلمسانية و منتهاها جامعة السوربون الفرنسية و هو من أكثر النقاد بعدًا عن أحادية المنهج موزعًا منهجه النقدي بين الإنطباعية

إلى التاريخية إلى البنيوية إلى الأسلوبية إلى التفكيكية إلى المؤالفة بينها و لا تزال النصوص بين هذا و ذاك تبرح حيّة في فجوة منه(المنهج النقدي) كما تزاور الشمس عن أصحاب الرّقيم.

و لا يعني ذلك أن مثل هذا النّاقد اللامع تعوزه النّظرية النّقدية، إنّما هي الرغبة في تطويع المنهج لصالح النّص و ليس العكس(حسب رأيه طبعًا) يبتغي من وراء ذلك إعادة بعث النّص و تحديد المنهج. و يقوم بهذا على كمستوى المنهج الواحد حين ينقله من مرجعية ليطبقه على من مرجعية مغايرة و يدعو غلى استثمار الآليات المنهجية الدخيلة بذوق محلي أصيل بحيث لا يتم الإساءة فيه إلى مقومات المنهج الغربي و لا يمس بخصوصية النّص العربي، و بذلك كان مرتاض ناقدًا غربي المنهج عربي الطريقة حداثي المادة، تراثي الرّوح. و مع كل هذا فإنّ الرجل لم ينل مكانته القمين بها، بعد طول سراحه و رواحه في حقل النّقد الأدبي و حق له أن ينالها، بل واجب علينا أن نقدم خطوة على هذا السبيل هذا، ما قاله يوسف وغليسي في كتابه.

من بين الإشكاليات التي تعترض مثل هذه الدراسة هو الخوض في مناهج تعدم الكثير من مقومات المنهج النقدي و انغلاق الخطاب النقدي المحلي على نفسه دون التفاوض مع مناهج خارجية تدعو إليها الضرورة أو انفتاحه انفتاحا مطلقًا على المنهج الوافد (أي الإستسلام للمناهج الوافدة)، هذه تفاصيل بعض الفوضى العارمة التي تعم المشهد النّقدي العربي المعاصر حسب رأي المؤلف الذي لم يشأ أن يحصر هذه الدراسة في تجربة نقدية مرتاض بذاتها و لذاتها بقدر ماحاول أن يقدم مسحًا لمختلف الظواهر المنهجية التي تنسحب إشكالياتها على عامة الخطاب النّقدي العربي المعاصر، و إن اتّخذ من تجربة مرتاض نافذة لها و معبرًا لطرح إشكاليات أعم و أشمل ، هذا من جهة المؤلف أما من جهتي فأحاول أن أسحب هذه الطروحات النقدية السردية العربية عامّة و الجزائرية خاصة.

1–عرض إشكالية المنهج:

يقدّم فيها المؤلف طرحًا فيقول أن تصدر الإشكالية المنهجية لطليعة الطرح النّقدي المعاصر مرهون بما حقّقه العصر من إنجازات نقدية واسعة أخرجت الخطاب النّقدي من عهد المنهج الواحد أو سيادة اللامنهج إلى عهد التعددية المنهجية Methodologie نتيجة للإعصار المعرفي العاتي الذي اجتاح سائر العلوم.

و يرى يوسف وغليسي" أنّ غياب الماهية الواضحة لمفهوم المنهج في أذهان كثير من نقاد اليوم و عدم اعتدادهم بجسامة هذا الإجراء و خوضهم المطلق في مناهج تفتقر إلى كثير من مقومات المنهج هو جزء

كبير من الفوضى العارمة التي يتخبط الخطاب النّقدي المعاصر في عشوائها، و من هنا يبدأ سؤال المنهج"[2].

2- المنهج النقدي و مشتقاته:

يذهب مؤلف الكتاب إلى أنّ كتب النقد العربي القديم لم تحفل في حدّ علمه بأيّة إشارة إلى المنهج و ربما كان منهاج البلغاء و سراج الأدباء لحازم القرطاجني الحالة الشاذة الوحيدة.

و في تعريف سعيد علوش:" يقصد عادّة بالمنهج سلسلة من العمليات المبرمجة و التي تهدف إلى الحصول على نتيجة مطابقة لمقتضيات النظرية، و يقابل المنهج من المنظور السابق الطريقة"[3]، و مثل هذه التعريفات تسوي بين المنهج و الطريقة و الإتّجاه و المدرسة و المذهب، و يبدو أنّ نهاية الأربعينات هي تاريخ البدايات الفعلية لوعي النّقاد العرب المحدثين بالمنهجية حيث ظهر مؤلف(النّقد المنهجي عند العرب) محمد مندور سنة 1946م، و"منهاج الدّراسة الأدبية" لشكري فيصل سنة1948م[4]، وهي كتب تنبني على مرجعية النقد العربي القديم التي لا تقصد بالنقد المنهجي غير النقد الذي يتجاوز الذوقية إلى التحليل و التعليل على حد تعبير الدكتور محمد مندور الذّي يقول: و الذّي يقصده بعبارة النقد المنهجي هو ذلك النّقد الذي يقوم على منهج تدعمه أسس نظرية أو تطبيقية عامّة و يتناول بالدّرس مدارس أدبية أو شعراء أو خصومات يفصل القول فيها و يبسط عناصرها و يبصر بمواضع الجمال و القبح فيها"[5].

و تقسّم دراسة شوقي فيصل المنهج إلى مدارس يستوي فيها المنهج و النظرية لا تكاد تعير اهتمامًا لماهية المنهج و هي كالتالي:

- النظرية المدرسية(تقسيم الأدب بحسب العصور التاريخية).
- نظرية الفنون الأدبية(تصنيف النتاج الأدبي بحسب الفنون و الأنواع الأدبية)
- نظرية خصائص الجنس(تقسيم الأدب من زاوية الأجناس: أدب فارسي، أدب تركي، أدب عربي،..).
- نظرية الثقافات(دراسة الأدب بحسب روافده الثقافية: أدب الثقافة العربية، أدب الثقافة الفارسية،...).
- نظرية المذاهب الفنية(دراسة الأدب وفق الطوابع الفنية التي توزعته).
- النظرية الإقليمية(دراسة الأدب موزعًا بين أقاليمه المختلفة: الأدب المصري، الأدب الشامي، الأدب المغربي،...).

و بعد بسط هذه النظريات و نقدها يخرج الباحث بمنهج هجين يسميه" المنهج التركيبي" الذي يفيد من جميع هذه النظريات[6]. و يمثّل كتاب" البحث عن المنهج في النقد العربي الحديث" للدكتور سيّد البحراوي، قفزة نوعية واعية، بماهية المنهج، إذ يشدّد على الأساس النظري للمنهج و مدى اتّساق آلياته و تناسقها و عدم تناقضها مع بعضها البعض، معرّفًا إيّاه بأنّه" مجموعة متناسقة من الخطوات الإجرائية المناسبة لدراسة الموضوع، تعتمد على أسس نظرية ملائمة و غير متناقضة معها، أي أنّ التناسب و التناسق لابدّ أن يتم بين جوانب ثلاثة: الأصول النظرية للمنهج و أدواته الإجرائية و الموضوع المدروس..."[7] ، و يقوم في كتابه هذا على أربعة نماذج من النقد العربي الحديث: ديوان العقاد و المازني(في الشعر الجاهلي) لطه حسين و مقدمة(برومثيوس طليقا) للويس عوض و في الثقافة المصرية لمحمود أمين العالم و عبد العظيم أنيس.

إلاّ أنّ تطبيق المنهج على هذه النّماذج المتأخرة زمنيّا ليس بالبحث المجدي، و يزداد الأمر تعقيدًا كلما أرفقنا هذه المصطلحات(المنهج، الخطة، الطريقة، المدرسة، الإتجاه، التيّار، المذهب، ...الخ)، بمقابلاتها الأجنبية كمقابلة جميل صليبا للمنهج بكلمة programmeليجعل كلمة methode مقابلا للطريقة[1]، ومن أجل تجنب الخلط بين هذه المصطلحات حاول يوسف وغليسي ضبط هذه المصطلحات من خلال إعطاء تعريفات خاصة بها[8]، و حتى لا تميع دلالة المنهج في عالم النّقد الأدبي حدّدها يوسف وغليسي بواسطة:

3– معايير الضبط المنهجي:

في اعتقاد يوسف وغليسي أنّ مفهوم المنهج النّقدي لا يكتمل دون استحضار شتّى المفاهيم السّالفة التّي تلتبس به، وعليه فالمنهج هو جملة من الأساليب و الآليات الإجرائية الصادرة عن رؤية نظرية شاملة إلى الإبداع الأدبي، و التي غالبًا ماتنبثق على أساس فلسفي أو فكري، يستخدمها الناقد في تحليل النّص و تفسيره بكيفية شاملة لا تتوقف فعاليتها على دراسة الجزء من الكلّ و إنّما تتجاوز ذلك على النّص في صيغته الكاملة شكلاً و مضمونًا في انتمائه إلى أي جنس أدبي.

و يخضع تطبيق المنهج النّقدي إلى خصوصية النّص الأدبي ذاته، إذ غالبًا ما تدّل تلك الخصوصية على المنهج الملائم لدراسته و استبطان كيانه، تفاديًّا لسقوطه في مغبة التطبيق الميكانيكي القسري الذّي غالبًا مايظلم النّص و لا يعطي نتائج تُذكر.

و ينبغي أن يتوفر في المنهج النّقدي مجموعة من المعايير تعمل مجتمعة من أجل أن تصير منهجًا مهيمنًا مكتملاً بذاته وهي :

أ- الرؤية المهيمنة: و نقصد بها الخلفيات و المنطلقات النّظرية التّي يستمد منها المنهج آلياته و غالبًا ما تكون ذات صبغة فلسفية.

ب-الشمولية: و يقصد بها أن يتسع المنهج لتفاصيل النّص البنيوية و الدلالية كيفما كان الجنس الأدبي الذي يستوعبه.

ت-الإستقالية: المفروض أن تتداخل المناهج النّقدية لكن من غير أن تذوب في بعضها إلى الدرجة التي يصعب فيها تأطير بعض الممارسات النّقدية منهجيًّا فالإستقلالية هي أحد مقومات المنهج، و يمكن أن نستثني من هذه المناهج المنهج الإحصائي الذي لا يكتمل بذاته و إنّما يوظف ضمن أي منهج آخر و كذا المنهج التكاملي الذي يفتقد هذه الإستقلالية.

ث-الآليات الإجرائية: حتى لا يوصف كل علم و كل فلسفة بالمنهج ينبغي أن يقوم على آليات إجرائية تكون سندا له أثناء الممارسات التطبيقية و ينبغي أن تتصف هذه الآليات بالمرونة حتى لا يتحول المنهج إلى وصفة جاهزة يسهل تطبيقها على أي نص.

تقييم المناهج:

يسعى بعض الدارسين إلى تقييم المناهج رغبة في اختزالها إلى مجموعات منهجية أوسع بضّم بعضها إلى بعض تبعًا للعناصر التي تتقاطع فيها، فهناك تقسيم ثنائي يوّزع المناهج بين المعيارية و الوصفية.

و على اعتبار أنّ تحول المنهج النّقدي من سياق إلى النّص هو أكبر تحوّل في مسار المناهج الجديدة فقد قسّمت المناهج النّقدية إلى سياقية و أخرى نصيّة.

تناول في الأوّل من هذه الدّراسة عنصر التّطور المنهجي و مراحله متناولاً في المرحلة الأولى المناهج السياقية التّقليدية متنقلاً من النّص كوثيقة إلى النّص التحفة في المرحلة اللاّحقة و من المناهج الإنطباعية و التّاريخية إلى المناهج النّصانية الحداثية و هي تنتقل من مرحلة التّأسيس و التّجريب إلى مرحلة التّخطي و التّجاوز، و يعتبر وغليسي عبد المالك مرتاض في مقدمة هذا الفصل من أكثر النّقاد العرب تطوّرا على مستوى المنهج و أكثرهم انشغالاً بالثورة المنهجية و وعيًّا بمكانة المنهج

في الخطاب النّقدي إذ لا يكاد يخلو كتاب من كتبه النّقدية من مقدمة شافية تستوفي الإشكالية المنهجية يستوفي فيها حقّها من البسط و الدّرس.

فهو يلبس لكلّ زمان لبوسه المنهجي، فهو متطوّر متجدّد باستمرار، مايلبث على حالٍ منهجية حتّى ينتقل إلى حالٍ أخرى، و ليس غريبًا في عرفه النّقدي أن يعتنق منهاجًا ما ثمّ سرعان ما يكفر به بحجة أنّه أفلس و لم يعد يستجيب لتّطور الأجناس الأدبية.

و هو تفاعل مستمر مع معطيات السوق الأدبية و النّقدية المعاصرة رغبة منه في أنّ يمّس بضاعته النّقدية كساد، يساوره قلق منهجي دائم نابع من عدائه المطلق لأشكال التّعصب النّقدي و إيمان متّجذر باستحالة تأسيس منهج ثابت لجنس أدبي متحوّل[9].

أولاً: المناهج السياقية التّقليدية و مرحلة النّص/الوثيقة:

أ- **الإنطباعية:** لقد استّهل مرتاض مشواره النقدي منذ نهاية الستينات ناقدًا انطباعيًا و إن لم يصدع بذلك و كان كتابه" القصة في الأدب العربي القديم" و شيء من كتابه" نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر" حصادا مبكرا و سريعًا لهذا الإستهلال، و لكنه لم يقصد إلى ذلك قصدًا إذ يقول أحد الباحثين الشباب في وقوفه على الكتاب الأوّل:" بيّن المؤلف منهجه في تأليف الكتاب و منهج قائم على الإنطباع و الرغبة في إشفاء الغليل و الإنتقام من المستشرق رينان"[9]، و قد أبدى النّاقد استعداده لاقتحام الموضوع بأدوات(النّقد التّاريخي من خلال تمهيد الكتاب الذّي قدّم صورة" بيئية" عامّة للأرضية العربية القديمة التّي أنتجت تلك البواكير القصصية و من خلال مقاربته التاريخية التّي يثبت فيها تأثر دانتي في كوميدياه الإلاهية برسالة الغفران لدانتي. " لكن هذا الإستعداد لم يدم طويلا بل سرعان ما انهار أمام الطاقات الإنشائية(الإنطباعية) الباهرة التّي يتميّز بها قلم النّاقد و هو يخوض في تحليل النّصوص حتّى لكأنّما كان يُنشيء نصًّا ابداعيّا جديدا موازيّا لها و هي صورة تطبيقية متقدمة لما انتهى إليه من أن النّقد إبداع ثانٍ"[10].

درس المؤلف القصة حسب أشكال وجودها المفترض في الأدب العربي القديم عبر ثلاثة أنواع:

1- القصة العاطفية:(القصة الشعرية، القصة الرومانتيكية).

2- ألوان من القصص(أحاديث الجاحظ، أحاديث ابن دريد، القصة الفكاهية، القصة الإجتماعية).

3- القصة الفلسفية(رسالة الغفران للمعري، قصة حي بن يقظان لابن طفيل).

" ثمّ إنّ مايهمنا هو الخصائص المنهجية للناقد وهو يعالج النصوص، يقوم منهج الناقد على إثبات الشاهد النموذجي للشكل القصصي المراد معالجته ثمّ يردفه بتحليل إنشائي مستفيض كأن ينثره إن كان شعرا بأسلوبه الإستطرادي الخاص أو ينشيء نصًّا موازيا(إن كان نثرا)... حتّى لا يكاد يتبقى إلاّ هذه الروح الإنطباعية الهائجة التّي تقوم على خيال لغوي مجنح يطوّح بصاحبها في أفضية نائية لا يفيق منها إلاّ و هو يقول" كدت أمضي إلى غير إيّابن فهيا إلى الفرض الذي كنت أنوي افتراضه، و الذي كاد عنّي يذهب و منّي يضيع"[11]،أو " حسبي ثرثرة حسبيّ"[12]، أليس هذا من التواضع و ليس كلّ ذلك إلاّ صنيع الذوق الإنطباعي.

و بعد عملية التحليل التّي لا تعدو أن تكون نثرًا فنيّا جميلا للنصوص تاتي مرحلة الدراسة التّي يسعى من خلالها إلى القبض على ما أمكن من العناصر القصصية في تلك النصوص ليصل إلى الحكم على تلك مرحلة الدراسة التي يسعى من خلالها إلى القبض على ما أمكن من العناصر القصصية في تلك النصوص إلى الحكم على تلك النصوص شعرية كانت(من قبيل رائية بن أبي ربيعة أو يائية جميل بثينة) او نثرية من قبيل احاديث ابن دريد أو مقامات البديع، و الناقد بهذه الكيفية سليل مدرسة نقدية عتيقة هي مدرسة الشرّاح التّي تمتد من المرزوقي إلى طه حسين التّي تجد لنفسها صدى واسعًا في المدارس التعليمية المعاصرة، و مع الخروج من (القصة في الأدب العربي القديم) تبدأ جذوة هذه الروح الإنطباعية تخبو، حيث لا نلمس لها إلاّ بعض الآثار القليلة الموزعة عبر كتابه(نهضة الأدب العربي المعاصر)، كما في وقفته على احدى خطب عبد الحميد بن باديس)[13] ، إلاّ أنّه يعوض تلك الاحكام الإنطباعية المتحمسة بذوق لغوي فيقوم بتّصيد الاخطاء اللّغوية النادرة و يصححها وفقًا لما تمليه عليه أمهّات الكتب القديمة كلسان العرب، لكنه سرعان ما اهتدى إلى المنهج التاريخي الذي تزامن مع انشغالاته الأكاديمية.

ب- التّاريخية:

و التّي مؤدّاها أنّ "النّقد تأريخ للأديب من خلال بيئته"[14].

و استّمر عبد المالك مرتاض يمارسه(النّقد التّاريخي) طيلة عقد من الزمن و كانت من ثمراته الكتب التّالية:

1- نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر في الجزائر1925م-1954م.

2- فن المقامة في الأدب العربي.

3- فنون النثر الأدبي في الجزائر1931م- 1954م.

و تشترك هذه الكتب الثلاثة في دراسة المتون الأدبية على مدى عشرين سنة، كما أنّ الفاصلة الزّمنية بين زمن تلك المنون و زمن دراستها لا تقلّ عن خمسة عشرة سنة، و هو شرط النذصوص التذاريخية التّي يأبى النّقد دراستها ما لم تدخل متحف التّاريخ، و قد دخل عبد المالك مرتاض معترك هذا الدّرس في نهاية الستينات بكتابة(نهضة الأدب العربي المعاصر في الجزائر) و الذّي يعتبر فيه النّص الأدبي مجرد وثيقة تاريخية، و يسوّي فيه بين النّص الصحفي و النّص الوعظي و النّص التّاريخي مادام المبتغى هو البحث عن الحقيقة التّاريخية، وقد دخل التّاريخية من باب ما أسماه المنهج الرّوائي تجاوزًا لأنه لا وجود لمنهج روائي في النّقد (و إنّما أطلق ذلك الوصف على الرواية الشّفوية)، و قد جاء الكتاب تأريخا للنهضة الجزائرية في مستوياتها الفكرية و الصحفية و الأدبية التّاريخية خلل الفترة الممتدّة ما بين 1925م- 1954م).

و بعده ألّف مرتاض كتابًا يتجاوز الخمس مئة صفحة بعنوان(فن المقامات في الأدب العربي) و هو في الأصل رسالته في الماجستير تقدّم بها إلى جامعة الجزائر عام 1970م[15]، يبحث فيه تطور فن المقامات في الأدب العربي على امتداد عشرة قرون كاملة متّقصيًّا ما أمكنه من نماذج مقامية بدءًا بأصولها الأولى، و يحرص فيه على البحث على البواعث البيئية التّي اسهمت في ميلاد هذا الفن الادبي العتيق و تصحيح ما علق بتطوره من أخطاء تاريخية محتّجا بما وقع عليه من وثائق تاريخية.

و يعتبر النّص المقامي أصدق من الوثائق التّاريخية التّي تشهد على روح العصر في ذلك العهد، ليتطرق فيما بعد إلى دراسة الخصائص الفنّية للمقامات دراسة بلاغية فنيّة مؤكدّا على أنّ فن المقامات ظلّ طيلة عشرة قرون محافظًا على كيان اللّغة العربية[16].

و يعتبر النّص المقامي أصدق من الوثائق التّاريخية تشهد على روح العصر في ذلك العهد، ليتطرق فيما بعد إلى دراسة الخصائص الفنّية للمقامات دراسة بلاغية فنّية مؤكدّا على أنّ فن المقامات ظلّ طيلة عشرة قرون محافظًا على كيان اللّغة العربية[17]، من العجمة و العامية مؤكدّا بذلك على صرامة المعيار اللّغوي في ضوء المنهج التّاريخيحيث يغدو النّص تأريخًا له و لصاحبه و لغرضه و جنسه و لغته.

و قد عزّز إطاره المنهجي التّاريخي بكتاب ثالث(فنون النثر الأدبي في الجزائر)، و هو في أصله رسالة دكتوراه نوقشت بجامعة السوربون سنة1983م. وهو قمّة عهده بالمنهج التّاريخي و آخره في الآن الذّي أطراه الباحث المصري عبد السلام محمد الشاذلي و شبهه بالبناء الأدبي الشامخ و يغطي الكتاب فترة تتجاوز عشرين سنة ابتداءا من 1931م–1954م التّي تعد قمة النهضة الثقافية في تاريخ الوجود الإستعماري بالجزائر.

و ينقسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب:

الباب الأوّل: يتناول الحياة العامّة في الجزائر(السياسية ، الإجتماعية، الثقافية، و الفكرية).

الباب الثاني: فنون النثر الأدبي في الجزائر(فن المقالة، الفن القصصي، القصة الطويلة، الفن المسرحي، حركة التّأليف، الخطابة، المذكرات و السيرة الذّاتية، الرسائل).

الباب الثالث: الخصائص الفنّية للنثر الأدبي في الجزائر، فهو دراسة عامّة للنص النثري الجزائري في مختلف أشكاله من زوايا سياقية، مضمونية، فنيّة، يهيمن عليها الطابع التّاريخي. مستشهدّا في ذلك بمئات النّصوص المخطوطة و المطبوعة معتمدّا في ذلك تقصي الحقائق التّاريخية عبر مساءلة أصحاب النّصوص الأحياء منهم و المقربين من الأموات منهم، وقد بلغ من الدّقة التّاريخية و الأمانة العلمية أن ذيّل بحثه بملاحق تحيل على انصوص و مراجعها و إثبات بعض النّصوص المفقودة مهما كان طولها و الترجمة الوافية لحياة ست عشرة كاتبًا مع الإحالة على المراجع التّي درست آثارهم، و هذا الجهد هو خلاصة ما يزيد عن عشر سنوات.

ثانيّا: المناهج النّصانية الحداثية و مرحلة النّص التّحفة:

اتفق الخائضون في شؤون الخطاب النّقدي الجزائري على أن مرتاض هو صاحب السبق و الزيادة في إدخال المناهج الجديدة إلى هذا الخطاب إلاّ أنّهم يختلفون حول أيّ من كتابه يمثّل هذه الكتابة هل هو كتابه(النّص الأدبي من أين؟ و إلى أين؟) الذّي صدر العام 1983م، أو دراسته(الخصائص الشّكلية للشعر الجزائري الحديث) التّي صدرت عام 1981م، إلاّ أنّه يقر بأنّه انزلق نحو المنهج الحديث من خلال تعامله مع النّص الشعبي في كتابيه(الأمثال االشعبية الجزائرية و الألغاز الشعبية الجزائرية)[18] ، و يقسّم المؤلف تجربة مرتاض مع المناهج الحداثية الجديدة التّي أثمرت مايزيد عن عشرة كتب مطبوعة إلى مرحلتين:

مرحلة التأسيس و التّجريب: تنازعه فيها رغبتان الأولى التأسيس لنموذج منهجي جديد مع اختبار إمكاناته التطبيقية بروح جديدة و الثانية الحرص على عدم التفريط في الرواسب المنهجية التّقليدية.

و المرحلة الثانيّة: مرحلة التّخطي و التّجاوز التّي استطاع فيها تجاوز أخطاء المرحلة الأولى و تبلورت فيها صورة النّموذج المنهجي(السيميائي و التّفككي) بعدما كان هاجسه المنهجي مقتصرّا على البنيوية و الأسلوبية.

أ- مرحلة التأسيس و التّجريب: تتمثّل في النّماذج التّالية مرتبة حسب تواريخ صدورها:

1- الخصائص الشّكلية للشعر الجزائري الحديث(1981م).

2- الألغاز الشعبية الجزائرية(1982م).

3- الأمثال الشعبية الجزائرية(1982م).

4- النّص الأدبي من أين؟ و إلى أين؟.

5- بنية الخطاب الشعري(1986م).

6- عناصر التّراث الشعبي في اللاّز (1987م).

7- في الأمثال الزراعية(1987م).

8- الميولوجيا عند العرب(1989م).

9- القصة الجزائرية المعاصرة(1990م).

و تشترك هذه النّماذج في اتّخاذ النّص الأدبي الشعبي مدارا للدراسة التّحليلية و مادام النّص الشّعبي مجهول المؤلف غالبًا فهذا مايسهّل تطبيق المناهج الحداثية التّي تقصي صاحب النّص من دراسة النّص و قد دشّن مرتاض هذه المرحلة من تجربته النّقدية بثورة عارمة على المناهج التّقليدية مقدّما منهجا بديلا ينعته بالمنهج البنيوي الذي يستعين فيه بمفاهيم الرياضيات و الإحصاء و المقارنة و أحدث المفاهيم الألسنية لفهم الظواهر اللّغوية و الأسلوبية في النّصوص، و هو ما لمسناه في القسم الثاني من كتابه الذي يعالج فيه الشكل الفنّي للألغاز الشعبية حيث يخضع هذه الدراسة للمنهج البنيوي و الأسلوبي في حين يخضع القسم الثالث من الكتاب الموسوم بـ (اللغة و الأدب في الأمثال الشعبية الجزائرية)، لدراسة تقف على المستوى البنيوي و الصوتي مع عدوله عن المستوى الدّلالي حيث سبق له و أن تقصّى الجوانب المضمونية في القسم الأول من الكتاب.

–و يقدم لنا في كتابه (في الأمثال الزراعية) دراسة لسبعة و عشرين مثلا شعبيا زراعيّا جزائريا و الذي اتّضحت ملامح منهجه الألسني في الفصل الأخير من الكتاب من خلال تعرضه إلى الخصائص البنيوية و الصوتية للأمثال أمّا سائر الفصول فلم تكن سوى دراسة تقليدية لمضمون الأمثال و حيّزها و زمانها.

أما كتاب عناصر التّراث الشعبي اللاّز فيقدم لنا دراسة معمّقة للجانب التّراثي في الرواية عبر قسمين أساسيين يعنى "أولهما بمضمون التّراث الشعبي الوارد في الرّواية فيما يعنى القسم الثاني بدراسة بعض القضايا الفنيّة(الشخصيات، الحيّز، الزّمان، البنية و الإيقاع)، و يستهل كلّ ذلك بثورة منهجية على السّائد التّقليدي"[19]، إلاّ أنّنا لا نكاد نلمح ملامح البديل المنهجي الذّي يسعى النّاقد إلى تأسيسه إلاّ في القسم

الثّاني من الكتاب، فما القسم الأوّل إلاّ دراسة مضمونية تقليدية بحتة يمتزج فيها التّاريخي بالإجتماعي مع براعة إنشائية يُحسد عليها مرتاض على حدّ قول الناقد.

و يبني كتابه(الميثولوجيا عند العرب) على ثلاثة أقسام يتكرر فيها نفس الصنيع المنهجي، قسم يتعلق بمفاهيم الأسطورة العربية و مضامينها و وظيفتها، و آخر متعلق ببعض القضايا الفنيّة، و هذا القسم هو جوهر الدراسة الألسنية، ووقف القسم الأخير على ثبت بعض النّصوص الأسطورية.

أمّا كتاب(القصة الجزائرية المعاصرة) فهو قمّة الفصل بين الشّكل و المضمون في النّص الأدبي على رأي النّاقد؟، حيث يعرض لدراسة مدونة قصصية جزائرية عريضة(70 قصة قصيرة) من ثلاثة أقسام، قسم أوّل(في مضمون القصّة الجزائرية القصيرة) يفرعه إلى مضمون اجتماعي و آخر وطني، كما يفرّع المضمون الإجتماعي إلى ثلاثة محاور(الهجرة، الأرض، السكن)، و ذلك بلغة سردية تشرح النّص و تمّططه و تصنفه بما يعدّ خرقا صارخا لجوهر المناهج الجديدة، فيما تبرز فعالية المناهج الألسنية الجديدة في القسمين الثاني و الثالث بدراسة الشخصية و الحيّز و المعجم الفنّي إلاّ أنّه يعود ليناهض جوهر هذه المناهج حين يعرض لبعض الهنّات الألسنية لدى بعض الكتاب بما ينافي وصفية المناهج النّصية.

أمّا في كتابه(الخصائص الشّكلية للشعر العربي الجزائري الحديث)،فقد تجاوز فيه إشكالية الفصل بين الشّكل و المضمون من خلال دراسته لثلاث و خمسين قصيدة دراسة شكلانية على امتداد زمني محدد من سنة 1920م إلى غاية 1954م، أو لعلّها أوّل دراسة تُشير إلى دلالة العنوان و الصورة و المعجم الفنّي مع التّعويل الكبير على الإجراء الإحصائي الذّي" يساعد على الحصر و الملاحظة الدقيقة لظواهر أدبية معينة"[20] .

و يمكن أن تكون هذه الدراسة نموذجًا من "الإستخدام التّراثي لعناصر الأسلوبية الحديثة في تمكين العمل الأدبي من دروب إيصاله إلى المتلقي أو إبلاغيته على وجه الخصوص"[21].

وهو غالبا ما يبرر تواتر الظواهر الأسلوبية الواردة في النصوص المختارة بمبررات دلالية تستند إلى السياق التاريخي للنصوص(كأن يبرر شيوع ألفاظ الحزن و السّخط و الأسى و ما يتصل بها في المعجم الفنّي خلال الفترة الإستعمارية).

و لعلّ كتاب (النّص الأدبي من أين؟ و إلى أين؟) يشكّل خلاصة منهجية واعية تتبلور فيها جلّ محاولاته التأسيسية التجريبية تنظيرا و تطبيقا فهو ثورة منهجية منظمة تحارب القديم البالي و تؤسس لجديد العصري من منظور ألسني مهيمن، و الكتاب هو عبارة عن جملة من المحاضرات التّي ألقاها المؤلف على طلاّب

الماجستير في الأدب خلال السنة الجامعية 1980م-1981م، ثمّ عاد ليجمعها في كتاب عبر قسمين اثنين: أولّهما تنظيري يخوض في تقنيات النّص الأدبي و ثانيهما تطبيقي يسعى إلى تجريب إمكانات المنهج الجديد بسحبها على نص نثري قديم لأبي حيّان التّوحيدي.

استّهل النّاقد ثورته المنهجية كعادته بالقدح في المناهج التّراثية التّعليمية العقيمة التّي قصاراها الجمع و التّكديس و الشّرح التّعليمي الأفقي، داعيًّا إلى بديل منهجي جديد ينظر إلى النّص الأدبي على أنّه ظاهرة نصيّة مستقلة، و يرسم من أجل ذلك جملة من الفرضيات المنهجية التّي يحاول لاحقا أن يؤكدها على مستوى الممارسة و التّي نوجزها فيما يلي:

1- يستحيل وضع قواعد ثابتة تضبط دراسة النّص الأدبي .

2- رغم توّحد الإطار المنهجي إلاّ أنّ الرؤية الشخصية لكلّ دارس للنّص الأدبي الواحد قد تقود إلى نتائج متباينة.

3- كلّ نص أدبي يفرض على دارسه منهجه المستقل.

4- لا يستطيع النّقد الواحد للنّص الأدبي أن يستنفذ كلّ فيه من خفايا و أسرار.

5- إن النّص الأدبي الواحد يجوز أن يدرسه أكثر من دارس .

6- إنّ النّص الأدبي يتجدّد و ينبعث من خلال كل قراءة يقوم لها قاريء.

7- و يبدو أنّ الكاتب كان مترددا في وصف المنهج الذّي اتبعه بين البنيوية و الألسنية و إن كان مستقلاً بشخصيته كما يقول عن نفسه[22].

لقد استبدل عبد المالك مرتاض في دراسته لنّص أبي حيّان التّوحيدي(الإشارات الإلهية) مفردات الشرح و التّحليل و النّقد و الدّراسة و القراءة بمصطلح " التشريح" الذّي جعله النّاقد السعودي عبد اللّه الغذامي مقابلا للتفكيكية .

يلج مرتاض بنية النّص من وجهة نظر ألسنية طارحًا مجموعة من الأسئلة حول" المتغيرات الأسلوبية في النّص" و على العموم فهي دراسة تراوح منهجيّا بين البنيوية و الأسلوبية من منظور ألسني موّحد يتزاوج فيه المصطلحان الألسني و النحوي و تتعايش فيه الثقافتان الحداثية و التّراثية تعايشا سلميّا نابعًا من شخصية النّاقد نفسها و هذا بشهادة النّاقد عبد العزيز المقالح الذّي يُطلق على مثل هذه هذا النّزوع صفة" الجديد المحافظ"[23].

أمّا كتابه" بنية الخطاب و دراسة تشريحية لقصيدة أشجان يمنية"، فليس إلاّ تأكيدًا للمنهج الذّي بسطه مرتاض و طبّقه في (النّص الأدبي؟ من أين؟ و إلى أين؟)، الذّي يقرّ فيه أنّه استخدم فيه المنهج الأسلوبي أكثر من المنهج البنيوي[24]، و ينطلق الكتاب من مقدمة مطوّلة (حول نظرية الشّعر) تسعى إلى المقاربة بين نظريتين متباعدتين في الزّمان و المكان و اللّغة، و لكنهما متقاربتان في الجوهر و التصور حيث يقول:" أنظر كيف يلتقي جان كوهين، وهو ناقد من أصحاب المدرسة النّقدية المعاصرة، مع أبي عثمان الجاحظ على الرّغم ممّا يفصل بينهما من زمان و مكان و حضارات،... "[25]، قبل أن يشرع في المواجهة النّصية لقصيدة "أشجان يمنية"، أبدى عبد العزيز المقالح مواجهة تحتكم إلى النّص وحده يستهلها بتشريح للبنية في مستوييها الإفرادي و التركيبي تترافق مع مفاتيح أسلوبية يطرحها في شكل استفهامي قبل أن ينتقل إلى تشريح جوانب أخرى(الصورة، الحيّز، الزمن، الصوت، الإيقاع و المعجم الفنّي)، برؤية بنيوية أسلوبية تستعين بمفاهيم الألسنية، وقد أثار هذا الكتاب جدلاً و اسعًا في الأوساط النّقدية العربية إذ رأى فيه الدكتور ابراهيم السامرائي نموذجًا(من فتنة المعاصرة)[26] ، فرّدّ عليه مرتاض بمقالة مطوّلة عنوانها(هل الحداثة فتنة)[27].

د– مرحلة التّخطي و التّجاوز:

تشّكلت هذه المرحلة من خلال أربعة كتب صدرت خلال فترة التّسعينات و هي مرتبة كالآتي حسب تاريخ صدورها:

1- ألف ليلة و ليلة- تحليل سيميائي تفكيك لحكاية جمال بغداد(صدر في العراق سنة1989م و أعيد طبعه في الجزائر1993م).

2- أ/ي- دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة (أين ليلاي؟) لمحمد العيد1992م.

3- شعرية القصيدة : قصيدة لقراءة –تحليل مرّكب لقص

4- قصيدة أشجان يمنية1995م.

5- تحليل الخطاب السّردي- معالجة تفكيكية سيميائية مرّكبة لرواية" زقاق المدّق" 1995م.

بدأ عبد المالك مرتاض يتجاوز من خلال هذه النّماذج جملة من العقبات المنهجية التّي كان يواجهها في المرحلة السّابقة، مرتكزًا في ذلك على معاول النّقد التّقليدي، و في طليعة هذه العقبات إشكالية(الشّكل و المضمون) مثلما بدأ يتجاوز البنيوية إلى ما بعدها إذ بدأ يصطنع منهجًا مرّكبًا جديدًا يقوم على المراوحة بين السيميائية و التّفكيكية، يتّضح ذلك من خلال كتابه المذكور آنفًا- من خلال تحليله لإحدى قصص

ألف ليلة و ليلة التّي تمتد من اللّيلة التّاسعة إلى الليلة التّاسعة عشرة، و شرحه من حيث العناصر السّردية (الحدث، الشخصيات، الحيّز، الزّمن و تقنيات السّرد و بنية الخطاب و المعجم الفنّي) من دون أن يفصل بين وحداتها العمل السّردي.

أفضى هذا المنهج المتّبع بالنّاقد إلى نتائج باهرة في التّعامل مع هذا الأثر التّراثي، لم يكن ليبلغها لو لم يؤمن بانفتاحية النّص و تعددية القراءة للنّص الواحد، وفقًا للمنهج التّفكيكي، فقد قرأ هذا النّص قراءة منهجية انتهت إلى إعادة النّظر في كثير من المسّلمات التّي قرّرها كثير من الباحثين –مستشرقين أو مستعربين – بشأن هذا الأثر التّي تعتبره كرنفال فلكلوري تلتقي فيه ثقافات العرب و العجم(الفرس، الهند،...إلخ)، وأنّها نصوص لقيطة لا أب شرعي لها اشترك في تأليفها مؤلفون من كلّ حدب و صوب في أزمنة و أمكنة مختلفة تأليفًا، جمعًا و ترجمةً.

و يؤكدّ عبد المالك مرتاض على الطابع العربي لهذه الحكايات فمؤلفها واحد بغدادي الدّار ، رشيدي العهد،عربي الثقافة، وطنّي النّزعة، كأنّه كان مندسًّا في بعض قصور هارون الرّشيد[28]، لذلك يستغرب مرتاض"أن يتعدد المؤلفون و تتوحد اللّغة الفنيّة للسرد؟ كيف يتعدد هؤلاء المؤلفون و تتوحد الرؤية الفنيّة، كما تتوحد المواقف و الشّخصيات و تتشابه على تباعد بين اللّيالي؟، وكيف نفسّر إذن هذه الوحدة الفنيّة العامّة التّي تطبع هذا الأثر الفنّي العظيم؟، هل يمكن لمجموعة من المؤلفين أولي ثقافات مختلفة و إيدلوجيات متباينة و منتمين إلى أزمنة و أمكنة متباعدة أن لو وفقوا إلى نسج هذا العمل الفنّي الكبير على هذه الصورة من الإنسجام و التلاؤم، و هو ما أطلقنا عليه الوحدة الفنيّة للسّرد..."[29] ، و تنسحب هذه الخصائص على جميع حكايات ألف ليلة و ليلة.

في حين قدّم مرتاض في كتابه(أ–ي) دراسة سيميائية تفكيكية لقصيدة " أين ليلاي؟" لمحمد العيد آل خليفة برؤية منهجية متطورة و قد برّر صياغته للعنوان بهذا الشّكل كما يلي:

1- إنّ (أ) هي أوّل مايشّكل الأبجدية العربية و معظم الأبجديات العالمية.

2- إنّ الباء هي خاتمة حروف الأبجدية العربية و قد ينشأ عن ذلك ضمنيًّا أنّ المضمون ثقافي قبل أيّ شيء و ينتمي أساسًا إلى الثقافة العربية التّي هي جزء من الثقافة الإنسانيّة.

3- إنّه يعدّ هذا العمل تجربة نقدية جديدة فهي محاولة لتأسيس نزعة على الأقل و يرى أنّ من حقّه أن يطلق على هذه الممارسة الثقافية عنوانًا ينتمي إلى جنس اللّغة العربية.

4- أنه لاحظ أثناء تفكيك النّص الأدبي أنّه ينزع إلى اصطناع الأصوات المفتوحة و النّداء، فكان اختيار الألف(تُضاف إليها الياء) عنوانًا، من الأمور التّي يجب أن تأتلف مع المضمون.

5- إنّ الهمزة هي احدى أدوات الهمز، كما أنّ (أي) تعني التّفسير و كلاهما ذات وظيفة نفعية بالقياس إلى مضمون النّص.

و عسى أن تكون مثل هذه اللّطائف ممّا يشفع لدى القاريء في تقبّل مثل هذا العنوان[30].

و بعد إشكالية العنوان، تأتي إشكالية المنهج التّي خصّها المؤلف بتمهيد مطوّل، يتضمن جملة من المنطلقات المنهجية، التّي تتحكم فيما بعد بالممارسة التطبيقية و يمكن تلخيصها فيما يلي:

1- تناول النّص من مستوياته المختلفة.

2- مراعاة النّص من مستوياته المختلفة.

3- مراعاة النّص الأدبي في شموليته دون فصل بين شكله و مضمونه .

4- تفكيك الشبكة المتحكمة في العلاقات التّي توّحد وجهي النّص(الشّكل و المضمون).

5- يمكن الإنطلاق من الشكّل إلى المضمون أو العكس دون أن يختل نظام النّص.

6- نبذ الرؤية التقليدية التّي تحرص على حصر النتائج و إصدار الاحكام.

7- ولوج النّص دون رؤية مسبقة و بدون منهج محدّد.

8- النّقد مكملّ للإبداع و هو مجرد وجه من وجوهه يجاريه تارّة و يجاوزه تارّة أخرى.

9- غاية النّقد أن يدرس أدبية الأدب.

10- لا يمكن الخلط بين نظرية النّص و بين النّظرية النّقدية التّي تدرس هذا النّص فلكل منهما مجالهما.

11- لا ينبغي أن نطلق الصفات الجزافية على دراسة نفسية و هذه بنيوية...الخ، بل الأولى أن نتساءل هل هذا منهج حداثي أم تقليدي؟.

بعد إذن يقدّم النّاقد عرضًا مقتضبًا لجذور الفكر التّفكيكي ممثلاً برائده(جاك دريدا) لينتهي إلى التّفكيكية ينبغي أن تكون بنتًا بارّة بالبنيوية لا أن تقاطعها.

ثمّ يشرع في تفكيك قصيدة "أين ليلاي؟" لمحمد العيد آل خليفة عبر ستة فصول استهلها شبيهه ببنية القصيدة العربية العمودية من حيث طول نفسها و اصطناعها للإيقاعات الفخمة الشهيرة و اختيار القوافي المألوفة و اصطياد الصور المعتادة و اختيار اللّفظ و انتقاء العبارة.

أمّا باقي الفصول فليست سوى تفكيك و تقويض لهذه البنيّة العامّة التّي تضمنها الفصل الأوّل بمنهج بنيوي و إجراءات سيميائية.

يتجلى ذلك من خلال مطلع الفصل الثاني المتعلق بطبيعة البنية في القصيدة المختارة حيث يقرّر انتماء النّص إلى البنية الشعريّة التقليدية ثمّ سرعان ما يقوّض هذه القراءة بتصنيف النّص تقنيًّا في خانة البنية الحداثية، التّي تصطنع الخطاب الدورائي(خطاب مفتوح و قصّة مغلقة)، و بعد إطلالة سيميائية عامّة على النّص ينتقل إلى مدارسة بنيته المعجمية.

أمّا الفصل الثّالث(في مخاض النّص و تأويليته)، فقد تمّثل فيه ما قبلية النّص، قبل أن يشرع في تفكيكه إلى أجزائه الأولى مشتتة كما كانت قبل أن تلتئم، و مع تسليم النّاقد بتقليدية النّص فإنّه يظفر منه بنماذج أيقونية درسها وفقًا لأبجديات الدّرس السّيميائي قبل أن يقف على رمز(ليلى) الذّي خصّه بدراسة تأويلية سيميائية المنطلق، و كان تأويل النّاقد للرّمز يقوم على التّعددية القرائية للنّص.

و في الفصول اللّاحقة يعرض النّاقد للنّص في مستويات الحيّز و الزّمن و الإيقاع.

و تتّضح ملامح "المنهج المرّكب" أكثر لدى مرتاض في كتابه" تحليل الخطاب السّردي" الذّي يقدم معالجة تفكيكية سيميائية مرّكبة لرواية زقاق المدّق لنجيب محفوظ، و الكتاب على غرار كتبه موطأ بمدخل منهجي يوضّح فيه القصد المنهجي الذّي آثر أن يسلكه ابتغاء تقصي الحيثيات السّردية لهذا الخطاب الرّوائي.

و يواجه مرتاض(زقاق المدّق) بروح منهجية تعددية و علّته في ذلك أنّ السيميائية انبثقت عن ميراث مرّكب من اللّسانيات البنيوية و دراسة الفلكلور و الميثولوجيا.

و يستعين النّاقد ببعض الإجراءات التّفكيكية إذ يفكك النّص السّردي إلى عناصره الأولى التّي تركب منها للكشف عن طوايا النّص و المواد التّي بُني منها و التّي أُعدّ فيها.

و قسّم الكتاب إلى قسمين، قسم متعلق بدراسة البنى السّردية في مستوياتها الطبقية و العقدية و الجنسية، و يُخضع هذه الدّراسة في هذا القسم إلى النّقد الموضوعاتي و يقسّم النّص إلى ثيمات أساسية(موضوعات رئيسية) ثمّ يفرعها إلى موضوعات فرعية.

"أمّا القسم الثاني فيتعلق بالتّقنيات السّردية حيث درس الشّخصيات في مستوييها البنيوي و الوظيفي من منظور سيميائي يتقصى دلالات الأسماء و الأعمار و تقصي الشّخصيات من حيث البناء المورفولوجي و البناء الدّاخلي و مراتبها السّردية في النّص و أبعادها الوظيفية.

كما درس البنية السّردية للنّص(علاقة السّارد بشخصياته، الأشكال السّردية، التّقنيات السّردية)، و بالرّغم من الطبيعة التّحليلية الوصفية للمنهج المتّبع إلاّ أنّ ذلك لم يمنعه من تطعيمها بشيء من المعيارية إذ عرض لبعض العيوب السّردية التّي اعتورت سبيل المسار السّردي منها بعض التّدخلات السّردية التذي تسدّ اللّعبة السّردية و انعدام الفروق اللّغوية بين الشّخصيات ممّا يشكّل خرقًا لتقاليد المناهج النّقدية الجديدة.

و درس الزّمان و المكان كلحمة و اعتمد مصطلح(المكان) بدل (الحيّز) لأنّ هذه الرّواية تحفل بالأمكنة الجغرافية أكثر من الحيّز، ليقف بعدها على خصائص الخطاب السّردي من زوايا أسلوبية(الوصف، التّكرار، التّشبيه،...الخ)، و سيميائية(العنوان، التّناص، دلالات الألوان، الأصوات و الرّوائح،..الخ)، ولم يختم الكتاب بخاتمة كالعادة.

و عمومًا كان للكتاب عبارة عن دراسة بنيوية المنهج و لكنّها تتمفصل على إجراءات منهجية أخرى معلنة(تفكيكية، سيميائية، إحصائية) أو غير معلنة(أسلوبية، موضوعاتية).

أمّا كتاب(شعرية القصيدة، قصيدة القراءة، تحليل مرّكب لقصيدة أشجان يمنية) فيّشكل تأكيدًا قاطعًا لتمّكن- التّصور التّفكيكي في مستوى التّعددية القرائية- من منهج النّاقد، يقول المؤلف: و يأتي صنيعه هذا حدثًا نقديًّا متفردّا في العالم بأسره، إذ نسمع من قبل بناقد(قديم أو حديث، عربي أو غربي...الخ)، ألّف كتابين نقديين بمنهجين مختلفين حول نصّ واحد.

فقد قدّم مرتاض دراسة بنيوية لقصيدة "أشجان يمنية" لعبد العزيز المقالح عبر كتابه(بنية الخطاب الشّعري) الذّي كان موضوعصا لمقال هجائي كتبه شخص يدّعي أنّه يُدعى عبد الحكيم راضي، و هو اسم غريب في عالم الأدب .

فكان هذا المقال المنشور بمجلة فصول المصرية المجلّد الثّامن، العدد الأوّل و الثّاني سنة1989م باعثًا للدكتور مرتاض على تأليف كتاب ثانٍ يدرس القصيدة نفسها بمنهج مغاير و قد ضمّنه ردًّا عنيفًا على ذلك المقال.

من هذا المنطلق راح يعيد قراءة قصيدة(أشجان يمنية) بمنهج مرّكب يجمع بين الأدوات السيميائية و الأسلوبية حيث عالجها من منظور سيميائي يعرضها على عدسة التّشاكل Isotopie الذّي اجتهد

في تعريفه على أنّه تشابك لعلاقات دلالية عبر وحدة ألسنية إمّا بالتّكرار أو التّماثل أو بالتّعارض سطحًا و عمقًا و سلبًا و إيجابًا، و راح يؤسس لتشاكل جديد استوحاه من النّص أسماه التّشاكل الإختياري و هو إضافة ثريّة للدّرس السّيميائي المعاصر.

ما عالج القصيدة من منظور أسلوبي على عدسة الإنزياحEcart و هو أبرز المعطيات الأسلوبية المعاصرة، ثمّ عرّج على معالجة النّص على مستوى(الحيّز) و على مستوى الرّباعية السيميائية (الأيقونة، القرنية، الرّمز، الإشارة).

و عمومًا فقد ظلّ مرتاض في هذه الكتب الأربعة شاهدًا على مرحلة التّخطي و التّجاوز حريصًا على التّأويل المحايث Immanent للظاهرة النّصية في حضورها اللّساني متخطيًّا عثرات التّأسيس التّجريبي حيث رسّخ انتماءه المنهجي الجديد متجاوزًا البنيوية إليها، مطّعمة بروح ما بعد البنيوية عن طريق الإفادة من معطيات التّحليل السيميائي بالتّغلغل في النّص و مشتقاته، المحيط النّصي Paratexte و ما تضمّنه من عناوين و هوامش و إشارات نصيّة، التّناص Intertextualite و علاقة النّص بالنّوى النّصيةIntertexte التّي يحيل عليها.

أمّا إفادته من التّفكيكية فقد كانت محدودة نسبيًا و لم تتجاوز بعض العموميات كالتّعددية القرائية و انفتاح النّص، بل لم تكن التّفكيكية لديه سوى مجرد إجراء بنيوي لا يهمّه أن يناهض الجوهر التّفكيكي في صورته الأصلية(تصورات جاك دريدا)[31].

خاتمة: و عمومًا فقد كان مرتاض في مرحلة" التّأسيس و التّجريب" يمّهد لمعالم منهج نقدي جديد يحتكم إلى التأويل المحايث للظاهرة النّصية مجرّدة من سياقاتها الخارجية، برؤية بنيوية أسلوبية لم تسلم من الرؤية التّقليدية، مثلما تعثرت –كما يقول النّاقد– على عتبات الفصل بين الشّكل و المضمون، لينجر عن ذلك تجزيء المنهج في احتواء الظّاهرة النّصية إجمالاً، و عموما فقد خلصنا إلى النتائج التالية:

أن عبد المالك مرتاض خلال مسيرته العلمية و العملية مرّ بمرحلتين و هو يحاول التأسيس لمنهجه الخاص هما:

- مرحلة التأسيس و التّجريب: تنازعه فيها رغبتان الأولى التأسيس لنموذج منهجي جديد مع اختبار إمكاناته التطبيقية بروح جديدة و الثانية الحرص على عدم التفريط في الرواسب المنهجية التّقليدية.

- المرحلة الثانيّة: مرحلة التّخطي و التّجاوز التّي استطاع فيها تجاوز أخطاء المرحلة الأولى و تبلورت فيها صورة النّموذج المنهجي(السيميائي و التّفككي) بعدما كان هاجسه المنهجي مقتصرّا على البنيوية و الأسلوبية.

و ختاما أوصي بإيلاء هذا الكاتب و الناقد القدير مكانته القمين بها، لاسيما و أنه من الكتاب و النقاد الجزائريين القلائل الذين ذاع صيتهم في المحافل المحلية و العربية، و حازت كتاباتهم على نسبة قراءة معتبرة و أغنت دراساته النقدية مكتبتنا الوطنية.

الهوامش

1- شكري فيصل : مناهج الدراسة الأدبية في الأدب الغربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1982، ص221.

2 - سيّد البحراوي: البحث عن المنهج في النّقد العربي الحديث،ط1، دار الشرقيات، القاهرة،1993، ص111.

3 - جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2،دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت،1982،ص435.

4 - يوسف وغليسي، الخطاب النّقدي عند عبد المالك مرتاض، ص22 إلى 24.

5- عبد المالك مرتاض: تحليل الخطاب السّردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1995،ص3.

6 - علي خفيف : التجربة النقدية عند عبد المالك مرتاض(مخطوط ماجستير) معهد اللغة العربية و آدابها، جامعة عنابة 1995، ص70.

7 - يوسف وغليسي: الخطاب النّقدي عند عبد المالك مرتاض ص34.

8 - عبد المالك مرتاض: القصة في الأدب العربي القديم، ط1، دار و مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968م، ص17.

9 - المرجع نفسه،ص29.

10 - عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، الجزائر،1983،ص68.

11 - عبد السلام المسدي: في آليات النّقد الأدبي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1994،ص88.

12 - عبد المالك مرتاض: فن لمقامات في الأدب العربي،ط2، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، 1988م، ص3.

13 - فن المقامات، عبد المالك مرتاض،ص527.

14 - عبد السلام محمد الشاذلي، حول قضايا التّغريب و التجريب في الأدب العربي المعاصر، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1985،ص23.

15 - جهاد فاضل: حوار مع د. عبد المالك مرتاض ضمن أسئلة النّقد، الدار العربية للكتاب،ص217.

16 - عبد المالك مرتاض: عناصر التّراث الشعبي في اللّاز ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1987م، ص6.

17 –عبد المالك مرتاض: الخصائص الشّكلية للشعر الجزائري الحديث، مجلة الآداب ، بيروت، السنة29، عدد11–12، 1981، ص183.

18 – عبد الله أبو هيف: أشكال تجديد الكتابة الإبداعية و قضاياها، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، مجلد22، عدد131، آذار،1982، ص94.

19 – جهاد فاضل: أسئلة النّقد، الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، د.ت، ص217.

20 – عبد العزيز المقالح: تلاقي الأطراف – قراءة أولى في نماذج من آداب المغرب الكبير،ط1، دار التنوير للطباعة و النشر ، بيروت، 1987، ص182.

21 – جهاد فاضل: أسئلة النّقد، ص216.

22 – عبد المالك مرتاض: بنية الخطاب الشعري،ط1، دار الحداثة، بيروت ،1982،ص17.

23 – مجلة المنهل، السعودية، المجلد55، العدد511، 1993–1994،ص64.

24 – نشرها في مجلة المنهل على حلقتين.

25 – عبد المالك مرتاض: ألف ليلة و ليلة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م، ص232.

26 – المرجع نفسه،ص231.

27 – عبد المالك مرتاض: أ–ي ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،1992،ص4.

28 – يوسف وغليسي، الخطاب النّقدي عند عبد المالك مرتاض،ص75.

29 – عبد المالك مرتاض، شعرية القصيدة، قصيدة القراءة، ط1، دار المنتخب، بيروت،1994،ص27.

30 – المرجع نفسه،ص43.

31 – عبد المالك مرتاض، القراءة و قراءة القراءة(خوض في إشكالية المفهوم)، مجلة علامات، جدّة، ج1، المجلّد4، مارس 1995،ص201.

المصادر و المراجع:

– يوسف وغليسي: الخطاب النقدي عند عبد المالك مرتاض، بحث في المنهج و إشكاليته، إصدارات رابطة إبداع الثقافية، الجزائر، عام 2002م.

– سعيد علوش: معجم المصطلحات الأدبية، منشورات المكتبة الجامعية، الدار البيضاء ، 1984،.

– محمد مندور، النقد المنهجي عند العرب ومنهج البحث في الأدب واللّغة، دار النهضة مصر، القاهرة، 1972.

– شكري فيصل : مناهج الدراسة الأدبية في الأدب الغربي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1982 .

– سيّد البحراوي: البحث عن المنهج في النّقد العربي الحديث،ط1، دار الشرقيات، القاهرة،1993 .

–جميل صليبا، المعجم الفلسفي، ج2،دار الكتاب اللبناني، مكتبة المدرسة، بيروت،1982.

– عبد المالك مرتاض: تحليل الخطاب السّردي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر،1995.

– عبد المالك مرتاض: القصة في الأدب العربي القديم، ط1، دار و مكتبة الشركة الجزائرية، الجزائر، 1968م.

- عبد المالك مرتاض، نهضة الأدب العربي المعاصر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، الجزائر، ط2، الجزائر،1983.
- عبد السلام المسدي: في آليات النّقد الأدبي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1994.
- عبد المالك مرتاض: فن المقامات في الأدب العربي،ط2، الدار التونسية للنشر، المؤسسة الوطنية للكتاب، تونس، الجزائر، 1988م.
-عبد السلام محمد الشاذلي، حول قضايا التّغريب و التجريب في الأدب العربي المعاصر، دار الحداثة، بيروت، ط1، 1985 .
- عبد المالك مرتاض: عناصر التّراث الشعبي في اللّاز ، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1987م .
- جهاد فاضل: أسئلة النّقد، حوار ات مع النقاد العرب ،الدار العربية للكتاب، تونس، ليبيا، د.ت.
- عبد العزيز المقالح: تلاقي الأطراف – قراءة أولى في نماذج من آداب المغرب الكبير،ط1، دار التنوير للطباعة و النشر ، بيروت، 1987.
- عبد المالك مرتاض: بنية الخطاب الشعري،ط1، دار الحداثة، بيروت ،1982.
- عبد المالك مرتاض: ألف ليلة و ليلة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1993م.
- عبد المالك مرتاض: أ-ي ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ،1992.
- عبد المالك مرتاض، شعرية القصيدة، قصيدة القراءة، ط1، دار المنتخب، بيروت،1994.
- عبد المالك مرتاض، القراءة و قراءة القراءة(خوض في إشكالية المفهوم)، مجلة علامات، جدّة، ج1، المجلّد4، مارس 1995.
-مجلة المنهل، السعودية، المجلد55، العدد511، 1993-1994.
-مقال عبد المالك مرتاض: الخصائص الشّكلية للشعر الجزائري الحديث، مجلة الآداب ، بيروت، السنة29، عدد11-12، 1981.
-مقال عبد الله أبو هيف: أشكال تجديد الكتابة الإبداعية و قضاياها، مجلة الموقف الأدبي، دمشق، مجلد22، عدد131، آذار،1982.
- علي خفيف : التجربة النقدية عند عبد المالك مرتاض(مخطوط ماجستير) معهد اللغة العربية و آدابها، جامعة عنابة 1995.